مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (١)
الإصدار الخامس والعشرون
(١-٢٤) ٢٠٢٥

# الأرض والقدّاسة، دور الجغرافيا الدّينية في صناعة القيادة الرّوحيّة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

**د. إبراهيم بن أحمد**
*المعهد العالي لأصول الدّين، جامعة الزّيتونة.*

*نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ مارس ٢٠٢٥م*

**الملخّص**

يشكّل الدّين محورا رئيسياً في تفاعلات حياة المجتمعات الحضاريّة والثقافية والسياسية. فالدّين ظاهرة اجتماعية وسياسية في نفس الوقت تؤثر على جوانب مختلفة في حياة الشعوب، كما أنّه يضطلع بدور أساسي في تشكيل ورسم الجغرافيا السياسيّة أو صناعة القيادات الرّوحيّة في مختلف أرجاء العالم. فالأديان —عموما والسماوية خصوصا–تميّزت في مسارها في كونها نقطة انطلاق للتعبير أمثل عن ثنائيّة الأرض والإنسان، ومن ثمّ التفاعل بينها والذي يتباين حسب السياق الثقافي والاجتماعي والتاريخي الذي تتحرّك داخل توازناته وأطره المرجعيّة هذه الأديان. ولمّا كان الإنسان جزءا أساسيّا في الجغرافيا وكان الدّين من أهمّ مكوّناته النفسيّة والاجتماعيّة، فإنّ علاقة الدين بالجغرافيا أصبحت أمرا طبيعيّا. وفي هذا السياق، يدور التّساؤل الرئيسي في هذه الدّراسة حول فهم ماهية العلاقة الجدليّة بين الطبيعي (الجغرافيا) والأنثروبولوجـــي (الإنسان) والمنتَج عنها (الأرض المقدّس)؛ وبذا تصبح للجغرافيا سلطة في الحقل الدينيّ، وقد تسهم هذه السلطة في صناعة القيادة الروحيّة وتسندها إلى بقاع بعينها فتكتسب القداسة.

**الكلمات المفتاحية:** الأرض، القدّاسة، الجغرافيا الدّينية، القيادة الرّوحيّة، الجغرافيّا الثقافيّة، سلطة الدّين.

*** المقدّمة**

ليس الاهتمام بالأرض عبثا، سواء تعلّق الأمر بمكوّناتها الداخليّة وتطوّرها عبر الزمان والمكان (مجال الجيولوجيا) أو بمناطقها السطحيّة (حقل الجغرافيا) والعلاقات القائمة بينها وبين الإنسان. ولئن انطلق هذا الاهتمام أوّل ما انطلق بالجغرافيا من أجل الاكتشاف والثروة فإنّ المقاربة النفسيّة والثقافيّة أصبحت جزءا أساسيّا في الدّراسات حول الأرض.

تدرس الجغرافيا في الأصل الفضاء الطبيعيّ وتنظيمه وتسييره. فهي إذن علم البقاع وتنظيمها. غير أنّها تطوّرت كهندسة كميّة من الوصفيّ إلى التفسيريّ فإلى المقاربة السلوكيّة التي تعنى بسلوك الأشخاص في الفضاء وبسيرورة أخذ القرار. وبذا تحوّلت الجغرافيا من كونها فضاء هندسيّا إلى فضاء عرفانيّ. وأصبحت وحدة دراستها الإقليم بما هو تركيب نظري ينتج عن تجميع عدد من المقومات والصفات المتشابهة طبيعيًا واقتصاديًا وبشريًا في منطقة جغرافية محددة يصبح لها تميزها وتفردها عن المناطق المجاورة، وبذلك فإن الإقليم الجغرافي وحدة دراسة لها شيء كبير من الثبات الذي يستمدّه من التوافق التدريجي الذي يحدث بين المكوّنات الطبيعية للأرض، والإمكانات البشرية التنظيمية والتكنيكية مع تغيّرات كمية تطرأ نتيجة زيادة السكان أو تغير نمط استخدام الأرض.

إنّ الجغرافيا إذن ثنائيّة الأرض والإنسان[1]: "ينجم عنها عنصر ثالث هو نتاج التفاعل بين الأرض والناس. وتشتمل دراسة الأرض على كثير من عناصر الدراسة الجغرافية الطبيعية على رأسها عنصر المكان الجغرافي والأقاليم الطبيعية للدولة، كما تشتمل دراسة الشعب على عناصر كثيرة من الحياة البشرية. وهي تبدأ بالسكان والنشاط الاقتصادي وأنماط السكن والمدن والتكوين الحضاري للناس من حيث سلالاتهم ومجموعاتهم اللغوية وتنظيمهم الطبقي، أما العلاقة بين الأرض والناس فهي شديدة التعقيد والتشابك وتؤدي في النهاية إلى سلامة تكوين الدولة أو عناصر قوتها وضعفها"[2].

في مسار تطوّر المعارف كان ولا يزال لعلم الجغرافيا إسهام كبير في اكتشاف العالم وأسراره. ولئن طغى عليه المنهج الوصفيّ الفيزيائي والهندسي الصارم فإنّه لم يخل من بعض الاهتمامات الأنثروبولوحيّة. فكان الإنسان أحد المواضيع الجوهريّة التّي يعالجها الجغرافيّ، لما له من علاقة عضويّة بالأرض اقتصاديّا واجتماعيّا وسياسيّا بل وثقافيا أبيضا. اتضح ذلك في العديد من أعمال علم الاجتماع أو التاريخ أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مثل ما نجده في الطوطمية الأسترالية لدى إميل دور كهايم Emile DURKHEIM (١٩١٢) وحالة الهندوسية عند لويس دومونت Louis DUMONT (١٩٥٣ و١٩٦٦) وحول موضوع الهندوسية لبول فين Paul VEYNE (١٩٨٣). وكذلك عند اليونانيين القدماء، الذين أظهروا أن التنظيم الاجتماعي والدين ليسا أمرين مختلفين، وجغرافيّة انتشار النبوّة في عند ابن خلدون في "مقدّمته" (١٣٧٧م) [3]. ولّما كان الإنسان جزءا أساسيّا في الجغرافيا وكان الدّين من أهمّ مكوّناته النفسيّة والاجتماعيّة، فإنّ علاقة الدين بالجغرافيا أصبحت أمرا طبيعيّا.

مكانيّة الجغرافيا تجعلها عنصر ثبات يقاوم الزمان. لأنّ الأحداث التاريخيّة وفواعلها يزولون ويبقى الأثر في الجغرافيا. ولّما كان الدّين حدثا يراد منه الاستمراريّة فإنّ ربطه بالأرض قد يضمن له هذه الاستمراريّة. وبذا تصبح للجغرافيا

[1] - رياض (محمد): الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا: مع دراسة تطبيقية على الشرق الأوسط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، المملكة المتّحدّة، ط١، ٢٠١٤، ص ١٠.

[2] - المرجع نفسه، ص ١٦.

[3] - ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدّمة، تحقيق دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، ج١، ص ١٠٤.

سلطة في الحقل الدينيّ. وقد تسهم هذه السلطة في صناعة القيادة الروحيّة وتسندها إلى بقاع بعينها فتكتسب القداسة.

إنّنا في هذه المقالة نسعى إلى بلورة هذه الفكرة، لأنّ الصّراعات الدينيّة القائمة اليوم ترجع عادّة إلى ملكيّة البقاع المقدّسة وتوزيعها الجغرافيّ، سواء تعلّق الأمر بالديانات المختلفة أو القضايا الداخليّة لدين بعينه. ولعلّ موضوع المقالة " دور الجغرافيا الدّينية في صناعة القيادة الرّوحيّة " يستجيب لهذا التمشّي. ننطلق فيها من مفهوم الجغرافيّا الثقافيّة فسلطة الدين، وننتهي بدور الجغرافيا في اكتساب القيادة الروحيّة.

**أوّلا– الجغرافيا الثقافيّة وسلطة الدّين**

إنّ ما يسمى بالجغرافيا الثقافيّة تهتمّ ب "الميادين البشريّة وبالإنسان ليس كفرد مستقلّ فحسب وإنّما كمساهم وحامل للقضايا الثقافيّة"[٤]، بما في ذلك التفاعل الثقافيّ بين الثقافات والبيئة الأرضيّة المعقّدة والتفاعل المتبادل بين مختلف الثقافات. فالجغرافيا الثقافيّة هو الفرع الدّي يعالج القضايا الدينيّة معالجة وصفت بالمحتشمة لندرتها في القرون الماضية. غير أنّه بعد تردّد أصبح المجال يحظى بعناية الباحثين منذ منتصف القرن الماضي، حيث اعتبر الدين بصفة عامّة واقعا ثقافيا، وحقيقة اجتماعية بارزة لكونه نظاما من أنظمة الإيمان والعبادة.

لئن تعالج الجغرافيا الثقافيّة عنصر الدّين في الثقافات، فإنّها لا تستطيع "معالجة التجارب الدينيّة الشخصيّة التّي يعتبرها البعض لبّ الدّين وأساسه"[٥]. واستعصاء الدين التعبّديّ على الدراسة الجغرافيّة ناتج عن سلطة المعتقدات المقدّسة المؤكّدة والمتواترة. وفي المقابل، تستطيع "دراسة الأنظمة الدينيّة المقرّرة وكذلك دراسة السلوك الدينيّ المتواتر"[٦]. ولذا تسلك الدراسة الجغرافيّة للأديان مسارين. أحدهما جغرافيا الأديان والآخر الجغرافيّا الدينيّة.

١– الدراسة الجغرافيّة للأديان: جغرافيا الأديان والجغرافيا الدينيّة: جهود الجغرافيّين الاصطلاحيّة والمصطلحيّة في تناولهم للشّأن الدينيّ قد قادتهم إلى التّمييز بين جغرافيا الأديان والجغرافيا الدّينيّة. ويبدو أنّ عملهم هذا لم يكن ترفا أكاديميّا نظرا للتوضيحات الجزئيّة التّي أسهمت إلى تحديد مفاهيم جدّ متقاربة. ولذا ينبغي تقديمها في تمشّي دراستنا حول سلطة الدّين الجغرافيّة. فما جغرافيا الديان وماذا يميّزها عن الجغرافيا الدينيّة؟

*** جغرافيا الأديان**

تعني جغرافيا الأديان التوزيع العالمي للمعتقدات المختلفة والمكوّنات الاجتماعيّة والانتخابيّة. وفيها يُفهم الدين على أنه الوجود المشترك للمعتقدات والأفعال الطقسية التي تهدف إلى إقامة علاقات محددة بين البشر والكائنات أو القوى غير البشرية، وتعتمد هذه الأفعال على المعتقدات وتشكل معها نظامًا ترتبط به المعرفة العادية المشتركة على نطاق واسع. ومن ثم تعتبر مؤسسة إنسانية، والهدف منها هو استكشاف علاقاتها مع العناصر المختلفة لجذورها المادية والبشرية. إن جغرافية الأديان إذن لا تهتم بالدين بقدر اهتمامها بالعلاقات من حيث الارتباطات والآثار، التي يقيمها مع المجالات

[٤] - سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، ترجمة أحمد غسّان سبالو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٠، ص٧.

[٥] - سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، مرجع سابق، ص٧.

[٦] - المرجع سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، مرجع سابق، ص ٧.

الاجتماعية والثقافية والبيئية الأخرى. وتدرسها بطريقة علمية، تصف الظواهر وتقيسها لتفسيرها بشكل أفضل.

يقدّم دافيد سوفير David (E. SOPHER 1923-1984) في كتابه "جغرافية الأديان" دراسة مفصّلة حول هذا الموضوع. ينطلق فيها من الخصائص الجغرافيّة للأنظمة الدينيّة بما فيها العرقيّة البسيطة والعالميّة والهامشيّة. فيربط هذه الأنظمة بالقواعد الجغرافيّة في ثنائيّة البيئة والمؤسّسات الدينيّة. ثمّ يتطرّق إلى تأثيرات الدّين على الأرض، حيث تنظّم الأديان الأماكن المقدّسة وغيرها من المراكز الدينيّة وأنشطة هذه من حجّ وتبشير وتعليم. سواء تحت حكم ذاتيّ أو طائفيّ أو حكومة تمنح طابعا رسميّا على الممارسات إن بالسماح أو الحظر أو الحياد حين يتعلّق الأمر بالعلمانيّة. وتبرز أهميّة هذا الكتاب في تجاوز الوصفيّ إلى رؤية ديناميكيّة واستشرافيّة للعلاقات بين الأديان في ضوء اعتبارات معاصرة ونزاعات مستقبليّة. ويرى في ضوء ذلك إمكانيّة تقلّص الأديان التقليديّة من حيث الاعتناق فتضطرّ إلى التعايش والتمسّك بالرموز القديمة. كما يرى احتمال تمدّد أديان ماديّة مستحدثة من البيئة الأمريكيّة تكون بديلة للأديان التقليديّة. غير أنّه يربط هذه التنبّؤات بمدى القدرة على "تحليل الخصائص المكانيّة والبيئيّة للأديان المعاصرة"[٧]. ويعتبر هذا العمل من أولى واجبات جغرافيا الأديان.

*** الجغرافيا الدّينيّة**

تركز الجغرافيا الدينية على دور الدين في تشكيل التصورات الإنسانية عن العالم ومكانة الإنسانية فيه. وهدفها الأساسي هو دور اللاهوت وعلم الكونيات في تفسير الكون. فهي إذن تستخدم فقط وصف الأماكن والمساحات المقدسة للتذكير بوجود الله وعظمته.

بفضل ظهور جغرافيا إنسانية وثقافية أكثر توجهاً نحو مشاكل المعنى والنية والقيم، حلّت الأسئلة المتعلقة بمركزيّة الذات محل تلك التي تشير فقط إلى التمركز الخارجي (فضاء)، الذي يدركه البشر ويختبرونه. فالفضاء ليس في الواقع ماديًا بحتًا بقدر ما هو أنثروبولوجي ووجوديّ. يؤدي إدراك ذلك إلى قبول فكرة أن هذا الفضاء يمكن أن يتضمن بعداً مقدساً يميل إلى ترسيخ نفسه. إذ بينما يقسّم العالم إلى مقدس ودنيوي، خلقت الديانات التوحيدية الكبرى جغرافية دينية عاشت بشكل خاص، حيث تتأثر مواقف المؤمنين وسلوكياتهم بالأماكن المقدسة. وفي هذا الصدد، يمثل الحج أحد أوضح مظاهر أهمية الأماكن المقدسة لدى المؤمنين.

يمكن للجغرافي أن يتساءل عن خصائص المكان المقدس، وكيفية تعريفه وتخصيص قدسيته من قبل الفرد أو الجماعة، من خلال ثقافتهم وخبراتهم وأهدافهم. ويهتم أيضًا بكيفية تصنيف الأماكن المقدسة وفقًا لخصائصها الدينية، والارتباط الذي تمثله من حيث جذور الفرد أو الشعب وطابعها التاريخي. وبالتالي فإنه يتساءل عن الطريقة التي يتم بها اختيار المواقع، والمعايير الديناميكية التي تحكم اختيارها، وكذلك الطريقة التي يتم بها حمايتها أو الحفاظ عليها أو القضاء عليها.

ومع ذلك، لا شيء يمنعنا من تصور طريقة أخرى للتفكير جغرافيًا في العلاقة بين الدين والفضاء، وهي بلا شك أقرب إلى ما يمكن أن نسميه بالجغرافيا الروحية، عندما يضمن

[٧] - سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، مرجع سابق، ص١٧٣.

المقدس ديمومته من خلال سكن الأفراد وليس الحجارة، الأمر الذي قد يقودنا إلى التساؤل عن المعاني التي يمكن أن تتخذها تجليات المقدس اليوم كوساطة مكانية أحيانًا لتمثيلاتنا وممارساتنا في العلاقة التي نحافظ عليها مع الخارج البيئي والاجتماعي.

على كلّ، يهتم الجغرافيون الجدد بشكل مباشر أكثر بمظاهر المقدس على سطح الأرض، وبقاياها. لم يعد ينطلق من الفكر الحتمي أو المادي للقرون والعقود السابقة، وإنّما من علم الأديان الذي يسعون إلى إثرائه باكتشافاتهم فيما يتعلق بالطريقة التي يؤثر بها الدين على الأفراد بما في ذلك التعبيرات الاحتفالية، والتسامح، والرمزية الدينية والهويات الجماعية، ورمزية العبادة، والأصوات الاحتفالية، والاتجاهات، والمواقف والحركات المقدسة، والساعات والأرقام، والنباتات والحيوانات المقدسة، والمناظر الطبيعية المحمية، والحج.

هكذا تربط الجغرافيا الدينيّة الأرض بالإنسان فتنشأ بين الطّرفين قيمة قدسيّة تضمن البقاء والاستمراريّة. هي قيمة البقاع المقدّسة التي وإن توجد في الأديان المختلفة فإنّها ظاهرة راسخة أو قل سلطة في الأديان السماويّة بموجبها تصنع القيادة الروحيّة لتلعب دورا في الجغرافيا السياسيّة.

٢- قيمة الأراضي المقدّسة في الأديان السماويّة: إنّ دراسة مصطلح "الأراضي المقدّسة" وتقييمه تقتضي أوّلا نظرة مفهوميّة في هذا المصطلح ثمّ ربطه بالأديان. وخيارنا هنا يقتصر على الأديان السماويّة أو التّوحيديّة الثلاث: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام.

*** مفهوم الأراضي المقدّسة**

إنّ "الأماكن المقدّسة" من المفاهيم التّي يصعب فصلها عن أصلها التاريخي وسياق بنائها. وهي في البداية تدلّ على أماكن ذات اهميّة كبرى في الديانات التوحيدية وتتّسع لتشمل الديانات الأخرى. إذ "لكل من الديانات الكبرى أماكنها المقدسة التي ترتبط بها ذكرى مؤسسها أو حلقة من تاريخها. وهي الطريقة التي تُبجّل بها اليهودية حائط البكاء، وقاعدة هيكل سليمان، والمسيحية كنيسة القيامة، والإسلامية الحجر الأسود في مكة. فالحاجة إلى التحديد المكانيّ تبدو ظاهرة عالمية، لأنّه حتى الدول الأكثر علمانية لا تخلو من مكان مرتفع أو ضريح يتمّ تبجيله"[٨]. ومن ذلك على سبيل المثال كون الحروب الصليبية للمسيحيين بانتهاكاتها العنيفة في العصور الوسطى تهدف إلى الوصول إلى قبر السيد المسيح ومصالح استراتيجية ومالية أخرى. ومنها دور المقابر المقدسة في الفتوحات العثمانيّة، التي كانت تسعى إلى إنهاء الانتماء إلى بلاد الكفر. كما انطلقت الانتفاضة الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) جراء التوترات الناتجة عن دخول اليهود الصهاينة إلى ساحة المساجد بالقرب من حائط المبكى.

إنّ الأماكن المقدسة إذن "تجربة إنسانية يعيشها البشر في جميع أنحاء الكوكب. ولدى كل دين شبكة طبقية من الأماكن المقدسة "المحلية". و"الإقليمية" ترتبط بنقطة

٨ - انظر:
COLLIN (Bernardin): les lieux saints «Que sais-je?» le point des connaissances actuelles N°998. Presses Universitaires de France, 2ème édition mise en jour, 1969, p.5.

ظهور رئيسية على نطاق عالمي. هذه الأماكن تجسّد في الفضاء الجغرافي التجربة النفسية والروحية للجماهير"[٩]. وقد تختلف مفهوم قداسة الأماكن حسب الجغرافيا والثقافة بحيث تتّسم بعض الأماكن بوجود صفات مقدّسة فيها مثل "الشّجر أو الصخور أو التلال أو البحيرات أو الكهوف. أو يمكن أن تظهر في أماكن لها علاقة بشخص مقدّس أو حادث مقدّس"[١٠]. وقد تكون القداسة إيجابيّة فتجذب الزوار أو سلبيّة فتنفر بكونها محظورة أو ممنوعة أو ملعونة فلا يسمح بزيارتها إلاّ لبعض الأشخاص المعصومين مثل ما نجده في بعض المقابر والمدافن الممنوعة في الهند. مع العلم أنّ معظم الأماكن المقدّسة في هذا البلد "ما هي إلاّ علامات فارقة أكثر منها أماكن مقدّسة" توجد أغلبها على منابع الأنهار ومصبّاتها ومفترق مجاريها وعلى قمم الجبال وحيثما توجد الأعاجيب الطّبيعيّة. ومع ذلك تبقى المعابد الهندوسيّة أكثر قداسة. فهي تجمع بين الجماليّة الفنّيّة والقداسة الدّينيّة والخدمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

تتجاوز الأماكن المقدّسة كونها فضاء هندسيا فتصبح بقاعا روحيّة تستمدّ قوّتها وسلطتها من الطقوس التّي تمارس فيها موسميّا أو يوميّا. ويستوي في ذلك الديانات العرقيّة البسيطة والهامشيّة والأديان العالميّة بما فيها السماويّة: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، التّي تحتفي بالأرض لضمان بقائها واستمراريّة قداستها.

*** الأديان السماويّة والاحتفاء بالأرض**

ليس مفهوم الديانات العالميّة حصرا على الأديان السماويّة. فالعالميّة أشمل. وهي التّي يعتبرها معتنقوها صالحة لجميع البشر فيتمّ تسهيل نشرها ونقلها بين الأمم وتبسيط اعتناقها بعد هيمنتها على الأديان المنافسة في محيطها. وأبرز الأديان العالميّة حسب الترتيب الزمنيّ هي البوذية والمسيحيّة والإسلام. وهي تنشأ ضمن نطاق عرقيّ مغلق ثمّ تكتسب صفة العالميّة لاحقا. "فرسالة يسوع المسيح كانت مختصّة بقومه عند نشأتها"[١١]. صحيح أنّ ثمّة ديانات مثل زرداشتيّة الفرس في القرن السادس قبل الميلاد وجرمانيّة ما بين النهرين في القرن الثالث الميلاديّ كانت تسعى إلى العالميّة فلم تنجح وبقيت ديانات رسميّة فحسب. أمّا اليهوديّة فرغم صداها العالميّ تظلّ عرقيّة مغلقة. ويراها البعض عنصريّة ولم ترتق إلى المستوى العالميّ. ومع ذلك فإنّها مهمّة من حيث الأماكن المقدّسة ولذا نختار مفهوم الأديان السماويّة هنا بدل العالميّة وخاصّة اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام. وهي ما يعرف بالإبراهيميّة نسبة إلى النبيّ إبراهيم عليه السلام.

*** القداسة الجغرافيّة اليهوديّة: القدس**

يبدو أنّ ظاهرة قدسيّة الأماكن بدعة في اليهوديّة والمسيحيّة ومترسّخة في الإسلام منذ بداياته. في اليهوديّة نعلم مدى تعقيد العلاقة مع القدس وغيرها من الأماكن المقدسة، عبر تاريخ طويل يمتد من الفضاء الأصلي للعبرانيين إلى إسرائيل المعاصرة وعبر عوالم الشتات المختلفة. وندرك أنّ تفرد معبد

9 -BERNADOU (Paul): Lieux saints. Publictionnaire. Dictionnaire encyclopédique et critique des publics. Mis en ligne le 23 juin 2020. Accès: http://publictionnaire.huma-num.fr/notice/lieuxsaints/

١٠ - سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، مرجع سابق، ص ٧٨.

١١ - المرجع نفسه، ص ١٨.

القدس في اليهودية القديمة ومركزيتها قضايا معروفة. لكنّ تكوين الصوامع وتحوّلها من فضاءات عاديّة للدراسة والصلاة إلى أماكن مقدّسة تمّ ببطء. وتسارعت وتيرة التقديس في العالم اليهوديّ المعاصر، حيث استثمرت دولة إسرائيل في الأماكن العلمانيّة والأماكن "الرمزية" ليهود الشتات، مثل المتاحف والمعارض وحوّلتها إلى "أماكن الذاكرة" فمقدّسة. ومع ذلك تبقى الأرض المقدّسة جوهر القداسة الجغرافيّة في اليهوديّة.

ليست القدس ساحة مغلقة يتكرر فيها منذ آلاف السنين صراع الحضارات، وحرب الهويات الدينية أو القومية. إنّها مدينة عالمية لأنّها المهد المشترك لليهودية والمسيحية والإسلام تباعا، وتعكس أماكنه المقدسة رمزية التبادلات والتأثيرات المتبادلة بقدر ما تعكس الصراعات والمواجهات. وقلّما نجد مدنا تتمتع بالثراء التاريخيّ مثل هذه الزاوية الصغيرة من الأرض الصخريّة وسط تلال الحجر الجيري، على حوالي ثمانية مائة متر فوق مستوى سطح البحر، وتبعد أكثر من خمسين كيلومتراً عن البحر الأبيض المتوسط وعلى أطرافها في صحراء يهوذا، وحولها منبع عين أم الدرج، جيحون التوراتي، على المنحدر الغربي لنهر قدرون.

وعلى تل "أوفل Ophel " الذي يسيطر على منبع "جيحون Gihon" ، يشهد البعض على وجود احتلال بشري له من العصر النحاسي (حوالي ٣٥٠٠ قبل الميلاد)، ثم بقايا المنازل في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد. وفي القرن الثامن عشر، تحوّلت البلدة إلى مدينة صغيرة محصنة، يحيط بها سور يحميها لأكثر من ألف عام. وحوالي عام ١٠٠٠ ق.م استولى داود، ملك يهوذا الشاب على المدينة، وكسب غنائم كثيرة والجزية خلال حملاته العسكرية المنتصرة في الممالك المجاورة. ولما ورث الملك سليمان مملكة أبيه داود بنى القصر الملكي والمعبد في منطقة أرونا شمال تل أوفيل، وضاعف مساحة المدينة – حوالي اثني عشر هكتاراً – لتصبح عاصمة حقيقيّة.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد استأنفت المدينة نموها مع تدفق اللاجئين من شمال المملكة فتحوّلت إلى مقاطعة آشورية (٧٢٢-٧٢٠ ق.م). واستفاد الملك "حزقيا Ezéchias" من القوى العاملة الكبيرة لتوسيع المدينة وتعزيز تحصيناتها، فحفر في صخرة تلة أوفيل نفق قناة أكثر من خمسمائة متر، بالإضافة إلى صهريج "بركة سلوام" لضمان إمداد المدينة بالمياه في حالة الحصار. وتوسّعت المدينة غربا عبر وادي "تيروبوين Tyropeon"، وتحصّنت المنطقة الجديدة بسور قوي. وقد مكّن ذلك العاصمة من مقاومة حصار جيش "سنحاريب Sennachérib" الآشوري عام ٧٠١ ق.م وسرعان ازداد ارتفعت نسبة السكان إلى حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة على حوالي خمسين هكتارا.

وفي عام ٥٩٧ ق.م سقطت المدينة وظلّت تحت الحكم البابلي حتّى ٥٨٧ ق.م حيث أحرقت المباني الرئيسية مثل القصور الملكية والمعبد وتفكّكت الجدران. و لم يبق منها سوى سور الدعم الشرقي لساحة المعبد وأنقاض الجدران ومنازل المنطقة المجاورة، بالإضافة إلى حفريات الحائط الغربي والحي اليهودي وكذلك عديد المقابر المنحوتة في الصخر على الجانب الآخر من نهر قدرون قرية سلوان، وتحديداً ما يسمى بمقبرة ‘‘ابنة فرعون’’ الواقعة شمالي البلدة... لكن، في عهد هيرودس الكبير (٤٠-٤ قبل الميلاد) أعاد الرومان بناء المدينة

ومبانيها بالرخام الأبيض المعزّز بالذهب، واكتست أبوابها بالفضة والذهب بفضل تبرعات اليهود في الشتات. فعزّزوا التحصينات بعدة أبراج وسور جديدة لحماية امتداد المدينة نحو الشمال الغربيّ. واستمر تجميل القدس في عهد خلفاء هيرودس، حيث بنى الوالي لدى الرومان بيلاتوس البنطي (٢٦-٣٦) قناة لجلب المياه من "خزانات سليمان" جنوب بيت لحم.

انتهت الحرب اليهودية الطويلة في عامي ٦٦-٧٠م بنهب أورشليم وتدمير المعبد بالكامل إلا أن المدينة اليوم تحتفظ بالعديد من الآثار، وفي مقدمتها ساحة الهيكل وخاصة حائط المبكى، الحجارة التي يصل ارتفاعها إلى اثني عشر مترًا من الجدار الاستنادي الغربي. وبفضل الحفريات الأثرية جنوب غرب حائط المبكى وفي الحي اليهودي تشكّل المخطط العام للمعبد وهندسته المعمارية وخصائصه في الديكور، فضلا عن نقاط الوصول المختلفة عبر عدة سلالم ضخمة. والأكثر من ذلك، كشفت الحفريات التي أجريت قبل إعادة بناء الحي اليهودي عن العديد من الآثار.

في عام ٣٢٤م.، أعاد الإمبراطور قسطنطين إيليا كابيتولينا إلى المدينة اسمها القديم: القدس. وأصبحت القدس مرة أخرى مدينة جميلة في قلب فلسطين مع ازدهار اقتصادي وتطوّر ديموغرافيّ... إلى أن غزاها الفرس عام ٦١٤م واحتلّوها مؤقّتا. وأحدثوا فيها مجازر وتدمير عدد من الكنائس. ولذا استسلمت القدس دون أي مقاومة للخليفة عمر رضي الله عنه سنة ٦٣٨م إلى أن بنى الأمويّون في دمشق (٦٦١-٧٥٠) مسجدين كبيرين على ساحة الهيكل – قبة الصخرة (أو المسجد المعروف بعمر) والمسجد الأقصى الكبير – الذي تم تجديده عدة مرات. وبناءً على تقليد رحلة محمد صلى الله عليه وسلّم الليلية في الإسراء والمعراج، كانت القدس قد أصبحت ثالث أقدس مدينة في الإسلام.

في عهد العباسيين ثم الفاطميين في مصر كانت المدينة مهملة إلى حد ما، حتى أن الخليفة الحاكم (٩٩٦-١٠٢٠) حاول تدمير جميع الكنائس، وفي عام ١٠٧٠، اضطهد الأتراك السلاجقة اليهود والمسيحيين في القدس، مما أثار حركة الحروب الصليبية في عام ١٠٩٩، فدخل جودفري أوف بوالون القدس، واتّخذها عاصمة مملكة لاتينية أغلب سكانها من المسيحيين الناطقين بالفرنسية (حوالي ٣٠.٠٠٠ نسمة). ومن ثمّ استؤنف الحج وبنيت كنائس جدد مثل كنيسة سانت آن التي لا تزال قائمة. وأعيد بناء كنائس أخرى مثل كنيسة القيامة. وظلّ الأمر كذلك إلى أن استعاد صلاح الدين المدينة عام ١١٨٧م. وفي بداية العهد العثماني (١٥١٧-١٩١٧م)، أجرى سليمان القانوني أعمال تجديد كبيرة في القدس وزوّدها بتحصينات جديدة لا تزال تحيط بالبلدة القديمة حتى اليوم.

يتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ القدس تاريخ وجغرافيا، صمدت في وجه الأحداث التاريخيّة لتصبح ملتقى الشعوب والأديان. فهي بذلك سلطة جغرافيّة روحيّة ليست لليهوديّة فحسب وإنما للمسيحية والإسلام أيضا، رغم أنّ لكيهما أماكن أخرى مقدّسة.

*** القدسيّة الجغرافيّة المسيحيّة: القدس والفاتيكان**

في المسيحيّة تتركّز دراسة الأماكن المقدسّة على ثلاثة فترات رئيسية في تاريخ الغرب. تمثل المسيحية الأولى قطيعة مزدوجة، من ناحية، مع القداسة المنتشرة لدى الوثنيّين، ومن ناحية أخرى، مع معبد القدس، ناهيك عن الحملات التي أطلقها المسيحيون منذ القرن الرابع لإنكار أي قداسة في المعابد. ولذا فإنّ أماكن العبادة المسيحية التي بنيت للصلاة في أماكن خاصة أصبحت مع مرور الوقت أماكن اجتماعيّة فمقدسة في نهاية الفترة المتأخرة من العصور القديمة، أي في الوقت الذي أصبحت فيه المسيحية ديانة معترف بها، ثم الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي.

ومع ذلك، فإن الكنيسة كمبنى "خاص" لم يتم استحسانه مطلقًا في الغرب. لقد عاد هراطقة العصور الوسطى والبروتستانت في العصر الحديث إلى مفاهيم المسيحية المبكرة التي بموجبها لم يكن لمكان الاجتماع أي أهمية في حد ذاته، لأن الكنيسة مكونة من "حجارة حية" هي المؤمنون. مما أدى بهم إلى مفاهيم متضاربة وخلافات حادّة. وقد حاول الراهب بارناردن كولان (Bernardin COLLIN) أن يجزم في مسألة الأماكن المقدّسة في المسيحيّة فركّز على موقعين ينفي عنهما أيّ شكّ في القدسيّة. وهما كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس. ويستدلّ في ذلك بعوامل تاريخيّة وبيانات حديثة للحفريات لينتهي إلى القول إنّه "لا شك في صحة الكنيستين"[١٢]. وقد يفهم من ذلك أنّ قداسة الأماكن الأخرى مستحدثة. ومع ذلك فإنّ دولة الفاتيكان وسلطتها الروحيّة وما تتضمّنه من أماكن تاريخيّة قد اكتسبت سلطة جغراقيّة قدسيّة.

تعرّضت الفاتيكان لحملات عسكريّة متتالية رومانيّة وفرنسيّة وبروسيّة ونمساويّة، قبل أن تصبح دولة داخل العاصمة الإيطالية روما بموجب اتفاقية "لاتران Latran"، التّي وقّعها الكاردينال غاسباري ( Cardinal Gasparri) مع مملكة إيطاليا[١٣] في ١١ فبراير ١٩٢٩ إبان حكم بنيتو موسوليني (Benito Mussolini). واسمها مأخوذ من هضبة الفاتيكان. هذه المدينة هي مقر البابوية والكنيسة الكاثوليكية. تبلغ مساحتها ٤٤ هكتاراً، يحكمها البابا أسقف روما، خليفة بطرس تلميذ يسوع المسيح. وذلك طبقاً لأحكام القانون الأساسي الصادر في ٧ حزيران ١٩٢٩ بمدينة الفاتيكان.

لدولة الفاتيكان كامل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية". وتتمتع بجنسيتها الخاصة، والعلم، والعملة، والخدمات العامة، والتنظيم الإداري المتميز عن الكنيسة، ولها منذ عام ١٩٥١، الحق في امتلاك أسطول. وبها كنيسة الفاتيكان أو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أو الرُّوميّة الكَثُلِكيّة (Ecclesia Catholica Romana) التّي تعدّ أكبر الكنائس المسيحيّة. وهي الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية ( Sancta Ecclesia Catholica Apostoli)، التّي لعبت دوراً بارزاً في

12 COLLIN (Bernardin) : les lieux saints, op.cit., p :6.

13 - PATRY (André) : « Le Saint-Siège », in Les Cahiers de droit, (1965), 6(2), 21–28. https://doi.org/10.7202/1004147ar.

تاريخ الحضارة الغربية وتطوّرها إلى جانب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والبروتستانتية. وتتألف كنيسة الفاتيكان من الكنيسة اللاتينية و٢٣ كنيسة مستقلة في الشرق في شراكة كاملة معها، تعرف بالكنائس الكاثوليكية الشرقية.

إنّ مكانة الفاتيكان الروحيّة منحتها ضربا من القداسة الجغرافيّة أقلّ من القدس طبعا، لكنّها أكثر نفوذا في العالم المسيحيّ بل في الدبلوماسيّة الرّوحيّة عموما.

*** القدسيّة الجغرافيّة في الإسلام**

في الإسلام لا يعرف بالمعنى الدقيق للكلمة، سوى ثلاثة أماكن مقدسة ذات طبيعة مختلفة: القدس، والمدينة المنورة، ومكة. وفي هذا المكان الأخير، الذي يصلي إليه المسلمون من جميع أنحاء العالم، والذي يتوافد إليه الحجاج من جميع البلدان، أصبح مقدسًا بوجود الكعبة. وتوجد مقامات أخرى لدى الطائفة الشيعيّة في كربلاء والنّجف في العراق. غير أنّ هذه المواقع ترفضها السنة السلفيّة وتعتبرها بدعة، تحتوي على مقابر مجهزة بالأضرحة ومساجد يتم تقديسها لوجود بقايا أولياء من خلالها تتوزّع البركات.

*** الأماكن الإسلاميّة المقدّسة بالإجماع: مكة والمدينة والقدس**

يوجد في مكة أكبر مسجد في العالم هو المسجد الحرام الذّي يحيط بالكعبة. وهي البناء المكعّب المغطّى بقطعة قماش سوداء رائعة، مطرزة بأحرف ذهبية فضية عليها آيات من القرآن الكريم. والقماش تقليديًا يصنعه الحرفيون المصريون سنة بعد أخرى، وتقدّمه الدولة المصرية للكعبة. وكلّ عام تتم إزالة عباءة الكعبة هذه وتوزّع على الأسر المكية التي عُهد إليها بالوصاية الدينية على المبنى منذ زمن محمد نفسه صلى الله عليه وسلم. وتباع قواطع العباءة كآثار. وفي الزاوية الشرقية للكعبة يوجد الحجر الأسود منصوبا.

يحتوي المسجد على شرفة خارجية كبيرة بأرضية من الرخام الأبيض تعكس ضوء النهار وتضاء ليلاً. وهي مساحة ضخمة تسمح بتدفق ٤ ملايين شخص خلال موسم الحج. إنها مساحة دائمة اليقظة يجتمع فيها الناس من جميع أنحاء العالم لقضاء أيامهم ولياليهم في أداء المناسك.

بعد أن كان المسلمون الأوائل يصلّون نحو المسجد الأقصى في القدس، تلقى النبي محمد صلى الله عليه وسلم الوحي من الله في المنفى في المدينة المنورة، يأمره بالتوجه إلى الكعبة. وبذلك أصبحت قبلة المسلمين في جميع أنحاء العالم. لقد اختلف المؤرخون وعلماء الإسلام حول من بنى الكعبة. يقول البعض إنّ الملائكة بنوها. ويقول آخرون إنّ أبا البشرية آدم عليه السّلام هو الباني، ولكن على مدى قرون عديدة أصبحت في حالة سيئة، فأعاد بناؤها النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السّلام. ويتفق الجميع على أن الكعبة بناها أو أعاد بناءها النبي إبراهيم عليه السّلام. وكان الحجاج يذهبون في كل عام إلى مكة، وكانت قبيلة قريش تستفيد من التجارة مع الحجاج.

باستثناء القدس، قلّما نجد مدينة مصيرها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بدين مثل مكة. ويبدو الرابط أقوى وأكثر حصرية لأن مكة والمناطق المحيطة بها، وكذلك المدينة المنورة حيث دفن محمد صلى الله عليه وسلم، على بعد حوالي أربعمائة كيلومتر إلى الشمال، لا تزال حتى اليوم مناطق

محظورة تمامًا على غير المسلمين، لا سيما اليهود والمسيحيين[14].

أمّا المدينة المنورة فثاني أقدس مدينة في الإسلام. وهي في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية المعروفة بالحجاز. وكانت تسمى يثرب. وعلى عكس مكة وكعبتها التاريخيّة، لم تكن واحة المدينة المنورة مكانا مقدسًا قبل الهجرة وبناء المسجد النّبويّ في الهواء الطلق وبه منصة مرتفعة للخطب. وكان المسجد عبارة عن سياج مربع تبلغ مساحته حوالي ٣٠ × ٣٥ مترًا، ومبني من جذوع النخيل وجدران مبنية من الطين. ويمكن الوصول إليه من خلال ثلاث بوابات. وقد تمّ اعتماد مخططه الأساسي لبناء العديد من المساجد الأخرى حول العالم. وكان للمسجد منطقة مظلّلة من الجنوب ومنطقة للصلاة تواجه الشمال باتجاه القدس. وعند تحويل القبلة إلى مكة، أعيد توجيه المسجد نحو مكة. كانت هذه المساحة أيضًا بمثابة مركز مجتمعي وساحة فناء ومدرسة. وفي سبع سنوات فقط، تمت مضاعفة مساحة المسجد لاستيعاب عدد متزايد من المسلمين.

وبجوار المسجد يوجد منزل النبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم حيث دفن خاصّة في بيت زوجته عائشة. لم يكن هذا المكان ملحقًا في الأصل بالمسجد، ولكن على مر القرون توسع المسجد كثيرًا لدرجة أن المقبرة المعروفة باسم البقيع، والتي كانت تقع خارج المدينة، أصبحت الآن تمثل السور الخارجي للمسجد. و"تُعدّ مقبرة البقيع من أقدم المقابر الإسلامية، تضم جثامين آلاف الصحابة والتابعين على مرّ القرون. وتضم كذلك مراقد العشرات من الأعلام الذين عاشوا زمن النبوة، أمثال العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وأسامة بن زيد، فضلاً عن مجموعة من زوجات الرسول محمد، منهم عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة، وصفية بنت حيي بن أخطب"[١٥].

وهذا أحد أهم الأسباب التي تجعل المسلمين من جميع أنحاء العالم يرغبون في زيارة هذه المدينة المغمورة بالنور والتعلم. أضف إلى ذلك أنّ ضواحيها مليئة بالأماكن والمواقع الغارقة في التاريخ الإسلامي بما في ذلك موقع غزوة بدر على بعد حوالي ٣٠ كم جنوب غرب المدينة، وعلى بعد ٤ كم إلى الشمال موقع غزوة أحد. وعلى بعد مسافة قصيرة أيضًا وقعت معركة الخندق.

إذا كان المسلمون جميعا يعترفون بقدسيّة مكّة والمدينة وكذلك القدس، فإنّ للطائفة الشيعيّة أماكن أخرى تقدّسها منها النّجف الشريف وكربلاء. في العراق.

*** الأماكن الإسلاميّة الشيعيّة المقدّسة: النّجف وكربلاء وسامراء والكاظمية**

إنّ عدم كفاية المعرفة بالتنوع الديني يؤدي في كثير من الأحيان إلى إغفال أصناف الإسلام وأماكن الحج المختلفة في آسيا وأفريقيا. ومن بين هذه المدن، تحتل النجف مكانة

[14] -CHABBI (Jacqueline) : « Aux origines de La Mecque, le regard de l'historien », in Clio : voyages culturels, Novembre 2002. (https://www.clio.fr/bibliotheque/pdf/pdf_aux_origines_de_la_mecque_le_regard_de_l_historien.pdf).

١٥ - متاريك (أحمد): "ما هي قبور أئمة البقيع التي يطالب الصدر بإعادة بنائها؟"، زيارة الموقع: ٢٠٢٥/٠١/٠١، الرابط: https://www.irfaasawtak.com/history/2024/04/16/

مهمة باعتبارها مدينة حج ونقطة انطلاق للموكب الشيعي السنوي الرئيسي. بالإضافة إلى ذلك، فإن وظيفتها المتمثلة في الحج التعبدي تكتمل بشكل مزدوج، من ناحية، من خلال ما يمكن أن يسمى "رحلات الحج اللاهوتية" الطويلة، ومن ناحية أخرى، من خلال رحلة حج أخيرة لرفات المؤمنين بعد الوفاة[16].

حول مقابر الأئمة تم بناء المدن الشيعية الأربع المقدسة في بلاد ما بين النهرين. وهي النجف وكربلاء وسامراء والكاظمين. وهي مكان إقامة العديد من العلماء الشيعة، بالإضافة إلى مراكز دينية وثقافية مخصصة لتعليم العقيدة الاثني عشرية. وبعض المدن – مثل بغداد والحلة، اللتين كانتا تقعان بالقرب من المدن المقدسة – لعبت حتى نهاية القرن الخامس عشر دور مراكز مجموعات دينية مهمة، جذبت أشهر رجال الدين الشيعة في عصرهم وكذلك مريديهم.

كانت المدن الأربع المقدسة في العراق مراكز مهمة للحج الشيعي منذ القرن السادس عشر، حيث سعت السلالة الصفوية إلى تحول جميع سكان إمبراطوريتها تقريبًا إلى المذهب الشيعي. وحتى لو ظلت النجف وكربلاء وسامراء والكاظميّة خلال الفترة الصفوية بأكملها تقريبًا تحت السيطرة العثمانية، فإن وجود دولة شيعية مجاورة قوية أدى إلى تغيير موقفها جذريًا. أعطى الملوك الصفويون أهمية كبيرة للمدن المقدسة والمراكز الدينية في العراق. وتزايد تدفق الحجاج الإيرانيين من سنة إلى أخرى، وغالباً ما كان مصحوباً بالأنشطة التجارية، وساعد في تحويل النجف وكربلاء على وجه الخصوص إلى موانئ تجارية حقيقية في الصحراء. فالتجارة والحجاج والتبرعات من الوجهاء الإيرانيين جعلت النجف وكربلاء تدريجياً مكاناً لتركيز الثروة المذهلة.

على أنّ النجف تحتل المركز الرابع في هرمية أقدس المدن الإسلامية، بعد مكة والمدينة والقدس. وهي مدينة تقع على بعد ١٦٠ كيلومترا جنوب العاصمة العراقية بغداد. وتعتبر أحد المراكز التقليدية للثقافة الإسلامية والتعليم الديني للعالم الإسلامي مثل جامعة الأزهر بالقاهرة، والزيتونة بتونس، والقرويين في فاس.

تقع المدينة على بعد ١٠ كم غرب الكوفة، و٨٠ كم جنوب كربلاء. وأصل كلمة النجف عربي ويعني "الارتفاع الذي يكون بمثابة سد للمياه". وهذا الارتفاع الهضبي هو الذي أطلق عليها اسم النجف. ويطلق عليه أيضًا اسم "مشهد علي"، أي المكان الذي يرقد فيه الإمام الأول. يُطلق على موقع قبر علي بشكل أدق اسم "الغاري"، وهو يطل على "بحر النجف"، وعبارة عن مستنقع مالح وجاف، لا يمتلئ غرب المدينة إلا أثناء الفيضانات. "نهر الكوفة" فرع الهندية من الفرات. النجف، في الواقع، مبنية على حافة الصحاري. وكان نقص المياه دائمًا أحد المشاكل الرئيسية التي تواجهها المدينة. غير أن أعمال إمدادات المياه العديدة في فرع الهندية مكنت من ري العديد من الحدائق. وفي عام ١٨٠٢، تم الانتهاء من حفر هذا الممر المائي الذي يربط جنوب المسيب بالنجف.

[16] -DUMONT (Gérard-François) : « Nadjaf, grand site de pèlerinage chiite pour les vivants et… pour les morts », in Revue de Géographie Historique, 2020, 16, pp.1-9. ffhalshs-02957457 .

نظراً لعقم الأراضي المحيطة بها، اعتمدت على الاستيراد من مناطق العراق الأخرى، وبشكل خاص، من وادي الفرات. لكن موقع النجف على طريق التجارة القديم نحو دمشق والحجاز، وعلى الطريق الذي لا يزال يستخدم باتجاه البصرة، وكذلك على طريق الحج نحو مكة، عوّض بشكل كبير عدم إنتاجية الأرض، ونقص المياه في البلاد. كانت النجف مركزًا تجاريًا مهمًا للقبائل البدوية في الصحراء، الذين كانوا يأتون تقليديًا لتبادل المنتجات من المحافظات السورية مقابل الحبوب والتمور من نهر الفرات. وكان تجار النجف من العرب والفرس وكلاء هذه المعاملات. وكان من مصادر دخل المدينة آلاف الحجاج والزوار من أنحاء أخرى من العراق وبلاد فارس والهند وغيرها من البلدان الإسلامية، الذين ساهموا بشكل كبير في ازدهارها.

يعود تاريخ النجف الديني إلى اليوم الذي تم فيه اكتشاف قبر الإمام علي لأول مرة في عام ٧٩٢، بعد قتله في الكوفة عام ٦٦١. ووفقاً للتقاليد الشيعية، تم نقل جثته سراً من قبل ولديه، حسن وحسين، في عام ٦٦١ في النجف ودفنوه في مكان فيه ضريح. وحسب بعض الروايات، حين شعر عليٌ باقتراب الموت، في مسجد الكوفة، أمر أقاربه بوضع جثته على ظهر جمل، ودفنه حيث يتوقف الجمل.

على كلّ إنّ ضريح علي يقع في وسط النجف ويشكل مجموعة معمارية أكثر إثارة للإعجاب لأنه يهيمن على قبته مآذن ذهبية متلألئة وثريّة جمعتها أجيال من الحجاج. وتستقر الرفات المفترضة للإمام علي في تابوت من الخشب الثمين المطعم بالعاج نقشت عليه آيات معينة من القرآن. ويغطيها شبكة من الفضة مطعمة بالذهب.

يقع القبر وسط غرفة مربعة تسمى "الروضة"، مغطاة بالكامل بمرايا كريستالية، مكتوب على جدرانها آيات من القرآن الكريم. فيها أربعة أبواب مزينة بالمرايا، اثنان من الذهب الخالص واثنان من الفضة. وتتصل بالفناء من خلال أربعة أبواب أخرى، اثنان منها ذهبيان واثنان فضيان. يهيمن "إيوان" ذهبي كبير (بوابة ضخمة على شكل قوس، تقليدية للمساجد الإيرانية) على الفناء المواجه للمدخل الرئيسي للضريح. وتعلوه قبة مغطاة بالذهب الخالص، وزخرف وجهها الداخلي بخزف خزفي كتبت عليه أسماء الأئمة المعصومين وقصيدة مدح للإمام علي. و"تعد الهجمات التي شنتها القبائل النجدية على كربلاء في مطلع القرن التاسع عشر انموذجا لنزاعات وحروب قبلية حملت في طياتها غايات شتى، وتركت اثارا واضحة وعميقة في مجمل الاوضاع السياسية والاقتصادية لسكان المنطقة"[١٧].

في ضوء ما تقدّم يتبيّن أنّ لكلّ من الأديان السماويّة الثلاثة أماكن مقدّسة يتّفق عليها أغلب المعتنقين وأخرى تبقى محلّ اختلاف. ويتّضح كذلك أنّ هذه الأديان تشترك في بعض الأراضي المقدّسة وتختلف في غيرها. وهذا يقيم الدّليل على أنّ قيمة هذه المقدّسات ليست في ذاتها بقدر ما في المعاني والعلامات التّي تحملها في طيّاتها. ولذا "يجب على جغرافيا

[١٧] - الفياض (مقدام عبد الحسن باقر): "غارات القبائل النجدية على كربلاء في مطلع القرن التاسع عشر"، ضمن مجلّة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة، العدد ٩، ٢٠٠٨، ص ١١١.

الأديان أن تعتبر عملها بالضرورة بمثابة دراسة لمعنى الأماكن وعلاماتها وكذلك العلاقات التي توحّدها. ولذلك فإن الأمر يتعلق بدراسة مكانية الأشكال، والفوارق الجغرافية، ومراعاة التمثيلات والمعنى الذي تنقله هذه الأماكن. إذا كان الدين يسمح لنا بالتفكير في المناطق، فذلك قبل كل شيء لأنه يقيم تقسيمًا مؤسسيًا، بين الأشياء الدنيوية والأشياء المقدسة"[١٨].

ولكن، إذا كانت الأديان السماويّة مشتركة في أماكن مقدّسة من جهة ومتصارعة فيما بينها من جهة أخرى، ألا يمكن تفسير ذلك بالتنافس على السلطة الجغرافيّة من أجل التفرّد بالمعاني والعلامات والمعلومات فالقيادة الروحيّة؟ إذا كان الأمر كذلك أليس للجغرافية دور في شرعيّة القيادة الروحيّة؟

**ثانيًا– دور الجغرافية في صناعة القيادة الروحيّة**

إسناد دور إلى الجغرافيّة في صناعة قيادة روحيّة يعني إعطاء قيمة شعائريّة للأرض، وسلطة تفضيليّة ثابتة تجعلها مقدّسة في ذاتها أو بما فيها، بغضّ النّظر عمّا تثبته الحقائق التاريخيّة أو تفنّده. ولتناول هذه المسألة ننطلق من مفهوم القيادة الروحيّة في علاقتها بالأرض. وننتهي إلى تبيّن مدى تأثير هذه القيادة في الجغرافيّة السياسيّة في الجيوبوليتيك.

*** مفهوم القيادة الروحيّة**

العالم يتغير، وتعتمد المنظمات طرقا جديدة في الأداء حيث تتسطح الهياكل ويصبح الحكم الذاتي الكلمة الرئيسية. في هذا السياق، تدعو الضرورة إلى قادة جدد لا ينتظرون العناية الإلهيّة فحسب بقدر ما يعتمدون التكاتف والعقلانيّة منهجا أيضا، دون التّخلّي عن العواطف والروحانيّة. هنا لا تكمن الصعوبة في أن ترى ما لم يره أحد وإنّما في التفكير في شيء يراه الجميع دون أن يفكّر فيه أحد. فالمؤسّسات تدار الأن على أسس الاستقلالية والثقة والجماعية، بعيدا عن العلاقات الهرمية ورموز القادة الكاريزميون التقليديون. ولكن حتى في هذه الشركات لم يختف مفهوم القيادة تماما.

ويمكن رصد ثلاثة أنماط متكاملة من القيادة. أولّها تشاركيّ يوجد في الاقتصاد التعاوني؛ وثانيها عاطفيّ إدارة العواطف في مواجهة حكم العقل؛ وثالثها القيادة الرّوحيّة أو العضوية، وهو التّيار الجديد الذّي طرحه حديثا لويس فراي (Louis FRY)، حيث يفسّر كيف يأخذ القادة بعض القرارات وهم متوتّرون اعتمادا على روحانياتهم. وما يسمّيه قيادة روحية "نموذج للتحول التنظيمي والتعافي من الجوانب السلبية إلى تعزيز رفاهية الموظفين والمسؤولية الاجتماعية للشركات دون التضحية بالربحية، ونمو الإيرادات وغيرها من المؤشرات المالية"[١٩]. ويمكن النظر إلى القيادة الروحية على أنها نموذج ناشئ ضمن سياق الروحانية الأوسع في مكان العمل.

القيادة الروحية هي نموذج للتحول التنظيمي والتطوير المصمم من أجل إنشاء منظمة تعليمية ذات دوافع جوهرية. في البداية، تم تطوير نظرية القيادة الروحية باستخدام

18 -RACINE (Jean-Bernard) et WALTHER (Olivier): «Géographie et religions: une approche territoriale du religieux et du sacré L'information géographique» , N°3, 2003, p. 205.

19 - FRY (Louis W.) and COHEN (Melanie P.) : Spiritual Leadership as a Paradigm for Organizational Transformation and Recovery from Extended Work Hours Cultures. Journal of Business Ethics (2009) 84:265–278. p. 269.

نموذج تحفيز داخلي يتضمن الرؤية والأمل / الإيمان والإيثار والحب، ونظريات الروحانية في مكان العمل، وروحية الرفاه.

الغرض من القيادة الروحية هو استفادة القائد والتابع من الاحتياجات الأساسية للرفاهية الروحية من خلال الدعوة والعضوية، لخلق تطابق الرؤية والقيمة عبر المستوى الفردي والفريق المُمكّن والمستويات التنظيمية، وفي النهاية، تعزيز مستويات أعلى من الالتزام التنظيمي والإنتاجية. من الناحية التشغيلية، تشتمل القيادة الروحية على القيم والاتجاهات والسلوكيات الضرورية لتحفيز الذات والآخرين بشكل جوهري يمكّنهم من الشعور بالرفاهية الروحية من خلال الدعوة والعضوية. وهذا يستلزم: –

١– خلق رؤية يختبر فيها القادة والأتباع الشعور بأنّ للدعوة في هذه الحياة معنى وغرضا يحدث فرقا.

٢– إرساء ثقافة اجتماعية/تنظيمية انطلاقاً من قيم الحب الإيثاري فيشعر القادة والأتباع بالانتماء، والفهم والتقدير، فتنشأ لديهم رعاية حقيقية واهتمام وتقدير لكل من الذات والآخرين.

تتلخّص نظرية القيادة الروحية الموسعة في استكشاف مفهوم الصحة الإنسانية الإيجابية والرفاه النفسي والأخلاقي والرضا عن الحياة من خلال التطورات الأخيرة في الروحانية في مكان العمل، وأخلاقيات الشخصية وعلم النفس الإيجابي والروحي للقيادة. ثم إن هذه المناطق توفر الإجماع على القيم والاتجاهات والسلوكيات الضروريّة لصحة الإنسان الإيجابية والنفسية والرفاهية، والرضا عن الحياة، وفي نهاية المطاف التشارك في المسؤولية الاجتماعية. يتم تعريف الرفاه الأخلاقي على أنه قيم الفرد ومواقفه وسلوكه بشكل أصيل من الداخل إلى الخارج في إنشاء مركز مبدئي تتوافق مع القيم العالمية المتفق عليها والمتأصلة في نظرية القيادة الروحية.

مصدر القيادة الروحية هو الحياة الداخلية أو الممارسة الروحية، كمصدر أساسي للإلهام والبصيرة، يؤثران بشكل إيجابي على تنمية الأمل/الإيمان برؤية متعالية لخدمة أصحاب المصلحة الرئيسيين وقيم حب الإيثار. إذ للموظفين احتياجات روحية (أي، حياة داخلية) تماماً كما لديهم احتياجات عاطفية جسديًا وعقليًا، ولا يتم ترك أي من هذه الاحتياجات عند الباب عندما يصل المرء إلى العمل. فالعلاقة بين الروحانية والقيادة هي الاعتراف بأن لدينا جميعًا صوتًا داخليًا هو المصدر النهائي للحكمة في أصعب حالات قراراتنا التجارية والشخصية.

إذا كانت القيادة تقليديّا عبارة عن علاقة عموديّة بين المسؤول والموظّفين، بين الحاكم والمحكوم، بين الزّعيم والحاشية، بين المتروبول والأطراف، فإنّها اليوم أقرب إلى الأفقيّة لما بات معمولا به من كسر القيود والحواجز، لتحلّ القناعة محلّ الفرض. وهو ما اقتضى صياغة مفهوم جديد لا يلغي القيادة وإنّما يعدّلها. وهو مفهوم القيادة الروحيّة، حيث تبنى العلاقات على استقلاليّة الأفراد والجماعات وتطوير روح التضامن من أجل المصلحة العامّة وتعويض الخطاب السلطويّ بالدعويّ الأخويّ.

إن هذا المفهوم يمزج بين الحكمة الروحية والقيادة الفعّالة، إذ يسعى القائد الروحي إلى توجيه الآخرين نحو النمو الشخصي والروحي، بالإضافة إلى تحقيق الأهداف الجماعية

والإيجابية في المجتمعات والمؤسسات. ويمكن تعريفها بأنها أسلوبٌ قياديّ يُمكّن القائد من ربط أفراد فريقه ببعضهم البعض وبالهدف المشترك من خلال القيم والمعاني السامية، مثل العدالة والمساواة. يُؤمن القائد الروحيّ بمعاملة جميع أفراد فريقه باحترامٍ وتقدير، بغض النظر عن خلفيتهم أو معتقداتهم. يتّسم القائد الروحيّ بالصدق والشفافية في تعاملاته مع الآخرين، ممّا يُخلق بيئةً من الثقة والاحترام. والرحمة والتسامح.

يُظهر القائد الروحيّ التعاطف والتفهم تجاه أفراد فريقه، وهذا يُساعد على حلّ الخلافات وتعزيز التعاون والإلهام والأمل. ويُحفّز القائد الروحيّ أفراد فريقه على تحقيق إمكاناتهم الكاملة، ويُشجّعهم على السعي إلى تحقيق أهدافٍ عظيمة وعلى المساهمة في خدمة المجتمع وتحسين حياة الآخرين. الأمر الذّي يتطلب القدرة على الاستماع وفهم الاحتياجات الفردية والجماعية، وتقديم الدعم والتوجيه بشكل يعزز التواصل الفعال والتفاعل الإيجابي بين الأعضاء والتفاني في تحقيق الأهداف المشتركة. وأكثر ما يتميز به القائد الروحي هو الخصائص التي تُميزه عن غيره من القادة، ومن أهمّها الوعي الذاتيّ. إذ ينبغي أن يُدرك القائد الروحيّ نقاط قوّته وضعفه. ويسعى باستمرار إلى تطوير نفسه من خلال رؤية واضحة واكتساب مهارات التواصل الفعّالة والشعور بالشغف والالتزام والقدرة على التكيّف.

وفي ضوء هذا المفهوم يمكن دراسة السلطة الجغرافيّة الدّينيّة في علاقتها بالجغرافيّة السياسيّة العالميّة. إذ في عالمٍ يسوده التغيير والتحديات المتسارعة، تبرز الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى قادةٍ يُلهمون ويرتقون بمن حولهم، لا سيّما في مجالات العمل والتعليم والمجتمع. والقيادة الروحية هي أحد أهمّ مفاهيم القيادة الحديثة، التي تُعنى بقدرة القائد على إلهام الآخرين وتوجيههم من خلال القيم والمعاني السامية، وخلق بيئةٍ إيجابيةٍ تُحفّز على الإبداع والابتكار والنموّ الشخصيّ.

لا تقتصر القيادة الرّوحيّة في الحقل الدينيّ على العنصر البشريّ متمثّلا في مفتين ومرجعيّات ورهبان بما في ذلك بابا الفاتيكان، وإنّما يشمل أيضا المؤسّسات. ونخصّ بالذكر هنا الأماكن المقدّسة مثل القدس والفاتيكان ومكّة والمدينة والمربّع الشيعيّ في العراق. أماكن تأخذ صفة الشّخصيّة الرّوحيّة فتؤثّر في المؤمنين تأثير القائد في الشركات والمنظّمات. وإنّ كان تأثير هذه الأماكن أكبر لتأسيسها لا على المنفعة الماديّة فحسب وإنّما على الاندماج الرّوحيّ أيضا، الدّي يترسّخ بفعل الدّعوة وغرس الأخلاق الحميدة، فيتقبّلها الفرد طوعا، تبعا لمفهوم "لا إكراه في الدّين". الأمر الذّي جعل الأماكن المقدّسة معادلة صعبة لا في الجغرافيّة السياسيّة فحسب وإنّما في الجيوبولتيك أيضا. ولذا يمكن التساؤل حول مدى فعاليّة القيادة الرّوحيّة في الجيوبولتيك عامّة والدينيّة منها خصوصا في ضوء جدليّة المادّة والرّوح.

*** أثر القيادة الروحيّة في الجيوبولتيك**

قبل الحديث في الجيوبولتيك الدينيّة ينبغي تقديم فقرة توضيحيّة لمصطلحي الجغرافيّة السياسيّة والجيوبولتيك. إذ غالبا ما يقع الخلط بينهما حين يعتبر أنّ الجغرافيّة السياسيّة تعريب مصطلح الجيوبولتيك. وهذا يحدث اضطرابا مصطلحيّا عند الاستعمال، لوجود مصطلح آخر نظير الجغرافيّة السياسيّة وهو " géographie politique"، الذي يدرس الإمكانات

الجغرافية المتاحة للدولة، ويشتغل بالواقع وينظر إلى الدولة كوحدة إستاتيكية بحيث تظلّ الجغرافيّة صورة ثابتة للدولة[٢٠]. فالجغرافيّة السياسيّة اصطلاح الجغرافيّ الالمانيّ فريدريش راتزل (Ratzel ١٨٤٤-١٩٠٤) منذ 1897 لدراسة العلاقة بين الفضاء والسلطة.

وقد دافع أندريه لويس سانغين (André-Louis SANGUIN) عن شرعيّة الجغرافية السياسيّة التي "ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر تحت زخم المدرسة الألمانية، وأصبحت اليوم مادة منهجيّة في العلوم الجغرافية. وبشكل أدق أحد الفروع الرئيسية للجغرافيا البشرية. وعديدة هي الدراسات التي أثارتها"[٢١]. ويرى أنّ مفهوم الجغرافيا السياسيّة طالما "اختلط بالجيوبوليتيكا، فأثار مشاكل كبيرة سواء في بعدها التاريخي أو النظري"[٢٢]. ومع ذلك يؤكّد أنّه "خلافا للرأي السائد، فإن الجغرافيا السياسية جزء لا يتجزأ من الجغرافيا لأنها متمركزة أيضًا على الفضاء وهذا ما يجعلها تختلف عن العلوم السّياسية، التّي تدرس مؤسسات الحكومة". ويوضّح أنّه "إذا كان للجغرافيا السياسية بعض التشعّبات مع العلوم السياسية فإنّها تختلف عنها من حيث مراكز الاهتمام"[٢٣].

ولّما كانت الجغرافيّة السياسيّة دراسة العلاقة بين السلطة والفضاء بمن فيه من بشر، فإنّها مرادفة لمصطلح جديد هو "الجغرافيّة البشريّة"، ولذا يكاد الجغرافيّون يتخلون عن المصطلح القديم فيستعملون نيابة عنه مصطلح "الجغرافيّة البشريّة". ولا شكّ أنّ هذا سيدفع الكثيرين إلى مزيد الخلط بين مصطلحي الجغرافيّة السياسيّة والجيوتوليتيك.

صحيح أنّ مصطلح الجغرافيّة السياسيّة واجه انتقادات الجغرافيّين فحاولوا طرده يتيما فاعتبر هجينا، لا ينتمي إلى العلوم السياسيّة ولا إلى العلوم الجغرافيّة المعروفة آنذاك، غير أنّه استقرّ في شبكة اصطلاحيّة تدرس الأرض بمن عليها في علاقتها بالدّولة. فهي إذن سياسة الدّولة تجاه المناطق بما فيها الأماكن المقدّسة، مثل سياسة دولة فلسطين تجاه القدس وسياسة الدّولة الإيطاليّة تجاه الفاتيكان وسياسة دولة السعوديّة تجاه مكّة والمدينة وسياسة الدولة العراقيّة تجاه المربّع الشيعيّ.

وإن كانت سلطة هذه الأماكن المقدّسة مستمدّة من البشر مؤمنين ومحبّين فإنّ إدارتها سلبا وإيجابا تتوقّف على سياسة الدّولة. وعليه فإنّ الأماكن المقدّسة تمنح الدّول التّي تحتضنها ضربا من القداسة يجعلها قائدة روحيّة. وهذا يفسّر قيادة فلسطين الروحيّة للأديان السماويّة الثلاثة بفضل القدس، وقيادة دولة الفاتيكان للمسيحيّة بدل فرنسا... لتواجد أضرحة ومبان تاريخيّة كاثوليكيّة فيها وقيادة المملكة العربيّة السّعوديّة للإسلام بدل تركيا وأندونيسيا. بفضل مكّة والمدينة المنوّرة، وقيادة العراق للإسلام الشّيعيّ بدل إيران بحكم وجود الأماكن الشيعيّة المقدّسة فيها.

ولكن، إذا سلّمنا بأنّ الأرض لا تنتقل، وأنّ السّلطة الجغرافيّة "دكتاتوريّة" لا تداول عليها، وأنّ لكلّ قيادة معارضة تريد التغيير، ندرك طباعا مغزى الصّراعات الدّينيّة والسياسيّة

---

٢٠- عبد السلام (محمد): الجيوبوليتيكا علم هندسة السياسة الخارجية للدول، دار الكتب، القاهرة، ٢٠١٩، ص ٦.

21 - SANGUIN (Andre-louis): "L'évolution et le renouveau de la géographie politique" In: Annales de géographie. 1975, tome 84, n°463. p. 275.

22 - Ibidem.

23 - Ibidem.

التّي تستهدف الدّول الحاضنة للأماكن المقدّسة قديما وحديثا. إنّها صراعات من أجل القيادة الرّوحيّة وما يتضمّنها من فرص ماديّة هائلة. ومن أجل التّأثير والهيمنة على الصّعيدين الإقليميّ والدّوليّ. وبذا تنتقل سلطة الجغرافيّة الدّينيّة من مستوى الجغرافيّة السياسيّة (سياسة الدولة في الأماكن) إلى حلبة الجيوبوليتك متأثّرا بها أو مؤثّرا فيها. ولذا ينبغي دراسة التّفاعل بين القيادة الرّوحيّة والجيوبوليتك.

*** مفهوم الجيوبولتيك**

إنّ مصطلح الجيوبولتيك مركّب من كلمة (Géo) وتعني الجغرافيا، وكلمة (Politic) وتعني السياسة. وهذا تعبير عن وجود علاقة بين الأرض والسياسة. وقد قدّم الباحثون الأوائل تعريفات شتّى. فيعتبره يوهان رودولف كيلين(Johan RUDOLF KJELLEN) "علم الدولة باعتبارها تنظيما جغرافيّا يتجلى في فضاء". بينما يراه فريدريش راتزل (Friedrich Ratzel) "العلم الذي يثبت أنّ الخصائص والظروف الجغرافية، وعلى الأخص المساحات الواسعة، تلعب دوراً حاسماً في حياة الدول، وأنّ الفرد والمجتمع الإنساني يعتمدان على التربة التي يعيشون عليها وأن مصيرها يحدده قانون الجغرافيا"... وإذا أضفنا إلى ذلك تعريف جاك أنسيل (Jacques ANCEL) يتبيّن أنّ الجيوبولتيك هي قبل كل شيء تحليل العلاقات الإنسانية مع المنطقة التي يعيشون فيها وتتطور عسكريا وسياسيا وتجاريا بدءا من الثوابت الجغرافية. فهي إذن "علم دراسة تأثير الأرض على السياسة في مقابل مسعى السياسة للاستفادة من هذه المميزات، وهناك من يصفها بعلم سياسة الأرض، أي العلم الذي يهتم بدراسة تأثير السلوك السياسي في تغيير الابعاد الجغرافية للدولة"[٢٤].

إنّ الجيوبولتيك في ضوء ما تقدّم استثمار في الجغرافية والجغرافيّة السياسيّة من أجل التأثير والهيمنة. ولذا يعرّفه الكسندر دوغين بأنّه "علم السلطة ووجهة نظر السلطة وايضاً من أجل السلطة، وهي علم الفئات السياسية العليا، ويكشف تاريخ الجيوبولتيك أن من شغلوا بأمورها كانوا من أولئك الذين شاركوا في حكم الدول والأمم أو ممن يهيئون أنفسهم لذلك الدور"[٢٥].

وارتباط مفهوم الجيوبولتيك بالسّلطة يجعله طباعا في قلب الصّراعات. وهو ما يفهم من المصطلح في الوقت الراهن، حسب توجّه إيف لاكوست (Yves LACOSTE)، حيث تعني الجيوبولتيك "دراسة أنواع مختلفة من التنافس على السلطة في المناطق، [...] يتم قياس القوة اعتمادا على الإمكانات الإقليمية الداخلية والقدرة على ذلك المشروع خارج هذه المنطقة وعلى مسافات أكبر بشكل متزايد"[٢٦].

وهذا يعني أنّ الأمر يتعلق بمنافسات السلطة أو النفوذ على الأراضي والسكان الذّين يعيشون فيها. منافسات تتمّ بين القوى السياسية بجميع أنواعها –الجغرافيا السياسية ليس فقط بين الدول ولكن أيضًا بين الحركات السياسية أو الجماعات المسلحة السرية بصفة أكثر أو أقلّ–للسيطرة على الأراضي

٢٤ - عبد السلام (محمّد): "الجيوبوليتيكا "علم هندسة السياسة الخارجية للدول، مرجع سابق، ص ١٦.
٢٥ - دوغين (الكسندر): أسس الجيوبولتيكا (مستقبل روسيا الجيولتيكي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٥٩.

26 -BONIFACE (Pascal): La géopolitique، Éditions Eyrolles, 7ème édition, 2020, Pp. 11-12.

كبيرة كانت أو صغيرة. وعليه يمتزج في الجيوبولتيك العلوم السياسية والجغرافيّة في آن. ولذا يرى بعضهم أنّ الجيوبولتيك منهج مقاربة أكثر منه علما[٢٧]. وأنّه منهج للفهم فحسب. وهذا سبب تحفّظ الأوساط الأكاديميّة لمدّة طويلة في استعمال المصطلح أو تدريسه كمادّة، وخاصّة بُعيد الحرب العالميّة الثانية حين دخلت الدّول الغربيّة في مفاوضات الصلح البينيّ، إذ كانوا يرون أنّ الجيوبولتيك يركّز على توازن القوى على حساب القيم الأخلاقيّة وروح العدالة[٢٨]. لكن، في السبعينات من القرن الماضي عاد المصطلح بقوّة في زخم محاولات بعض الدول مثل ألمانيا وفرنسا وإيران ويوغسلافيا ورومانيا والصين الشعبيّة استرجاع سيادتهم والخروج من الثنائيّة القطبيّة (الاتحاد السوفييتيّ/الولايات المتّحدة). وكانت هذه العودة مصحوبة بانبعاث الحروب. وعليه لا يمكن فصل الجيوبولتيك عن سياق نشأته وتطوّره: الصراعات. ولمّا كانت الصّراعات لا تقتصر على السياسيّة والعسكريّة دون الثقافيّة عامّة والدينيّة خصوصا، فإنّ دراسة القيادة الروحيّة في ضوء تفاعلها مع الجيوبولتيك أمر مشروع.

*** التّفاعليّة الرّمريّة: القيادة الروحيّة في الجيوبولتيك**

في هذا المبحث الختاميّ نعتمد نظريّة التفاعل مدخلا. وليس هذا خيارا اعتباطيّا. لأنّ سلطة الدّين الجغرافيّة تتشكّل من ثنائيّة الأرض بطبيعتها الهندسيّة والإنسان بثقافته. فالتفاعل بين الأرض ومن يعيش عليها يحيل الثنائيّة على الجغرافيا الثّقافيّة، بحيث لا تعتبر الأرض مجرّد تمثيل هندسيّ وإنّما يضفى عليها طابع رمزيّ يجعل بعض الأماكن مقدّسة. وهذه القداسة تمنح الأماكن قيادة روحيّة تميّزها عن غيرها من الأمكنة، فتصبح بموجبها بقاعا للحجّ. فالحجّ ومواسمه أقوى تجليّات التّفاعل الرمزيّ بين الأرض والبشر. ويترتّب عنه "حركة تجاريّة وتبادلات ثقافيّة وامتزاج اجتماعيّ وتكامل سياسيّ فضلا عن بعض النتائج الثانويّة الضّارة كانتشار الأوبئة والأمراض"[٢٩].

ولمّا كانت الأماكن المقدّسة والبشر المرتبطون بها يخضعون لحكم دولة، فإنّ التفاعل بين الطرفين يتمّ ضمن الجغرافيّة السياسيّة، وبها تكتسب الدّولة صفة القيادة الرّوحيّة التّي تميّزها بين الدول، مثل تميّز فلسطين والفاتيكان والمملكة العربيّة السّعوديّة والعراق فيما يتعلّق بالأديان التوحيديّة. وغنيّ عن البيان أنّ العلاقة بين الدّول تتأسّس على الصّراع والتنافس من أجل الهيمنة والتأثير، شأنها في ذلك شأن الأديان ممّا يجعل التعايش بين الأديان أمرا صعبا، ولذا يدخل التّفاعل بينها – وهو تفاعل رمزيّ – ضمن الجيوبولتيك. وهو ما نعالجه هنا اعتمادا على مقاربة "التفاعليّة الرمزيّة" (Interactionnisme Symbolique).

إنّ التّفاعليّة الرّمزيّة تيار فكري في علم الاجتماع يقوم بتحليل المجتمع كنتيجة للتفاعل بين الأفراد الذين يتكونون منه. تطور هذا الاتجاه في الولايات المتحدة في منتصف القرن العشرين من خلال أعمال جامعة شيكاغو، مقتبسًا من مجالات مختلفة: علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو

27 -MANLIO (Graziano): Géopolitique: introduction méthodologique، Note de travail، Décembre 2022, p. 2.

28 -NAZET (Michel) : Géopolitique et relations internationales: une introduction, Ellipses, Paris, 2013, p. 17.

٢٩ - سوفير(دافيد): جغرافية الأديان، مرجع سابق، ص ٨٣.

علم الاجتماع أو علوم المعلومات. ينظر هذا التّيار إلى المجتمع على أنه نتيجة تفاعلات متعددة ومباشرة بين الأفراد وليس ككيان متفوق على الأفراد الذين يشكلونه.

عند التفاعل، ينسب الأفراد قيمة رمزية إلى سلوكهم وإيماءاتهم، على أساس معنى ناتج عن تفاعل الفرد مع الآخرين، يمكن استخدامه في التواصل مع الأشياء. ولذا تركز دراسات التفاعليين على التفاعلات بين الفرد والآخرين وبيئته ودوافعه. وهي تستند إلى ملاحظات شخصية ومباشرة تم إجراؤها في الميدان. ولذا تتعارض التفاعلية مع الحركة الوظيفية التي هيمنت على علم الاجتماع الأمريكي والتي فضلت التحليل الكمي المبني، على سبيل المثال، على الدراسات الاستقصائية أو استطلاعات الرأي.

ليست التّفاعليّة معطى ثابتا بقدر ما هي سيرورة ديناميكيّة لتوليد المعاني والرّموز باطّراد، يسهم فيها الفرد والجماعة. وعلى قدر ارتباط الإنسان برمز ودلالاته يكون تميّؤه للدفاع عنه والصّراع من أجله. والتّفاعل يتمّ في مستويين: داخليّ وخارجيّ. أمّا الدّاخليّ فيتمّ جغرافيّا بين مكان مقدّس والمؤمنين به من جهة، والدّولة المشرفة عليه جهة أخرى، مثل مكّة ودولة السعوديّة، وبشريّا بين معتنقي دين بعينه مثل المسلمين سنة وشيعة... تجاه المقدّسات. وأمّا الخارجيّ فمجاله الفضائيّ العلاقات الدّوليّة في إطار الجيوبولتيك المبنيّ على الصّراعات. وبشريّا يرتبط الأمر بمدى التعايش بين أهل الأديان مثل اليهود والمسيحيّين (كاثوليك وبروستانت..) والمسلمين (سنة وشيعة...)، الذّين وإن كانوا ينتمون جميعا إلى الفكر التّوحيديّ، فإنّ علاقتهم صداميّة، الأمر الذّي يتطلّب النّظر في مدى تفاعلهم الرمزيّ سلبا أو إيجابا تجاه بعضهم البعض.

*** تفاعلُ اليهوديّة الرمزيُّ مع المسيحيّة والإسلام**

صحيح أنّ المسيحيّة تولّدت من رحم اليهوديّة. غير أنّ الوليدة كانت بمثابة ثورة على الأم. ولذا كانت العلاقة بينهما عدائيّة عبر التّاريخ. إذ اضطهد المسيحيّون بادئ الأمر من قبل اليهود أوّلا ثمّ الإمبراطوريّة الرّومانيّة لاحقا. لكنّ بخروج اليهود على الرّومان توتّرت العلاقة بينهما فأخذت الإمبراطوريّة تضطهد اليهود وتنفيهم خارج البلاد. إلى أن اتّخذت المسيحيّة دين الإمبراطورية بدل اليهوديّة. فكان ذلك فرصة انتقام المسيحيّين من اليهود، وخاصّة لاعتبارهم أنّ هؤلاء هم الذّين قتلوا المسيح وصلبوه.

واستمرّ هذا الموقف في الدّول الغربيّة المسيحيّة حتّى القرن السادس الميلادي حيث حظر البابا غريغوري الأول (590-604) تنصير اليهود عنوة، كما دعا البابا كاليكستوس الثاني في القرن الثاني عشر الميلادي إلى حماية اليهود، ثمّ بدأت المصالحة بين الطرفين في عهد "بابا الإصلاح"، بوليس السادس (١٩٦٣-١٩٧٨م). وفيها دعت الكنيسة الكاثوليكيّة إلى عدم مؤاخذة اليهود المعاصرين في خطايا أسلافهم، وتعزّزت هذه الدّعوة سنة ١٩٩٣ حين اعترفت الفاتيكان بدولة إسرائيل بعد "اتّفاقية أوسلو" وتبادلا التمثيل الديبلوماسي. وتلت ذلك زيارة البابا يوحنا الثّاني إلى القدس سنة ٢٠٠٠م. وهكذا تمّ تبرئة اليهود من دم المسيح، وفي المقابل تمّ تبرئة المسيحيّين من محرقة اليهود. وهذا ما خلق تفاعلا رمزيّا بين اليهود والمسيحيّة، بين التوراة (العهد القديم)

والإنجيل (العهد الجديد) وأصبحت الدعوة تتركّز على الشّراكة في القدس باعتبارها تراثا يهوديّا/مسيحيّا. تراثا يوحّد في صعيد الجيوبوليتك بين سلطتين روحيّتين أولاهما أمريكيّة (خليط بين المسيحيّة غير الكاثوليكية واليهوديّة والصهيونيّة) وثانيتهما أوروبيّة ذات غالبيّة كاثوليكيّة فاتيكانيّة. وما يجمع بين الطّرفين هو سلطة القدس الجغرافيّة، التّي بات يستمدّ منها الغرب الشامل قوّته الروحيّة من أجل الهيمنة على العالم.

أمّا علاقة اليهوديّة بالإسلام فلم تكن سيّئة عبر التّاريخ إلاّ في القرن العشرين، حين نشبت الصراعات العربيّة الإسرائيليّة. فكان القاطنون تحت سيطرة الحكام المسلمين في وضع سُمح لهم بممارسة دياناتهم الخاصة وإدارة شؤونهم الداخلية باعتبارهم أهل الذّمّة. وإن وجد اضطهاد ضدّهم فهو شاذّ، مثل ما حصل في بلاد فارس في القرن الثاني عشر وفي الأندلس عند سقوطها في قرطبة وغرناطة وفي عهد الموحدين والمرابطين. بل كان اليهود يفضّلون العيش تحت حكم المسلمين. لكنّ مع قيام دولة إسرائيل وما أعقبه من الصراعات حول الأرض/الرّمز تردّت العلاقة بين الطّرفين، ووجد المسلمون سندا لدى المسيحيّين، الذّين عارضوا بادئ الأمر تقسيم فلسطين قبل أن يجنحوا للأمر الواقع بعد التوقيع على اتّفاقيات كامب دافيد وأوسلو.

ومنذ ذلك الوقت يبدو أنّ المسيحيّة قد تهوّدت. واتّحدت اليهوديّة والمسيحيّة وأخذتا تدافعان أمريكيّا وأوروبيّا عن أمن إسرائيل على حساب فلسطين. وأصبحت القضيّة الفلسطينيّة محرّكا أساسيّا للجيوبولتيك العالميّة حول مفهوم "البقاء للأقوى". صحيح أنّ "الجنوب الشّامل" –وخاصّة ذوي الإيديولوجيّة اليساريّة – متعاطف مع العرب الفلسطينيين غير أنّ انقسام العرب والمسلمين — إلى سنّة وشيعة – حول هذه القضيّة أضعفهم أمام التحالف الغربي اليهوديّ الصهيونيّ والمسيحيّ، ممّا جعل قيادة الإسلام الروحيّة غير ناجعة في جغرافيّة القدس.

*** تفاعل السنة والشيعة مع القضيّة الفلسطينيّة**

أصبح من المسلّمات أنّ القيادة الرّوحيّة للعالم الإسلاميّ تنسب إلى المملكة العربيّة السّعوديّة بفضل السلطة الجغرافيّة التّي تمنحها إياها مكة والمدينة بالإجماع. وإن كان المسلمون الشّيعة يسعون إلى مشاركة السعوديّة في هذه القيادة من خلال جغرافيّة "المربّع المقدّس" في العراق، فإنّ هذه الدّولة الأخيرة ليست قادرة على المنافسة اقتصاديّا وعسكريّا، ولذا فإنّ الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة تسعى إلى سدّ الفراغ، لا في العراق فحسب وإنّما في فلسطين أيضا وفي القدس بصفة أخصّ. ولعلّ هذا الاهتمام الإيرانيّ يجعل التفاعل بين السّنة والشيعة مضطربا عموما وفي القضيّة الفلسطينيّة خصوصا. وإذا أمكن الإقرار بوجود صراع بين الدّول الإسلاميّة فإنّه يبرز في المواقف تجاه القضيّة الفلسطينيّة، التّي صنّفت الدول إلى مطّبعة مع إسرائيل — وفيها تلك التّي في سبيلها إلى التّطبيع –ومقاوم إيّاها. وحول هذه الثنائيّة تدور الجيوبولتيك العربيّ والإسلاميّ.

على عكس التّقارب بين اليهوديّة والمسيحيّة بمباركة العالم الغربيّ الشامل على أساس التركيز على ما يجمع بينهما وتقليل شأن ما يفرّق، فإنّ التنافر والتقاتل والطائفيّة باتت تعيق التعايش الإسلاميّ، سواء تعلّق الأمر بالسّنّة حيث الصّراع

القديم الجديد محتدم بين المملكة العربيّة السّعوديّة وتركيا من أجل القيادة، أو بالشيعة بمرجعيّاتها المتنافسة، العراقيّة والإيرانيّة... الأمر الذّي يجعل دور الدّول العربيّة والإسلاميّة هامشيّا من وجهة نظر جيوبولتيكيّا. ويحتمل أن يذوب هذا الدّور في مشروع الغرب الشامل، الذّي يهدف إلى توحيد الأديان السّماويّة تحت المسمّى "الإبراهيميّ"، بحيث تنقل القيادة الروحيّة العالميّة من سلطة الدين الجغرافيّة إلى سلطة افتراضيّة مركزها أمريكيّ، وما الدّعم الأمريكيّ اللا مشروط لإسرائيل إلاّ تمهيد لهذا المشروع، الذّي إذا نجح تصبح الأماكن المقدّسة التقليديّة بلا رموز بشريّة قادرة على توليد معاني وتجديد أفكار لضمان الاستمراريّة.

*** الخاتمة**

إنّ الأرض تكتسب صفة القداسة عبر التاريخ بفضل الإنسان/الرّمز المحدود زمانيّا. والجغرافيا المقاومة للزّمان تضمن لسلطة القداسة استمراريّة الوجود. وتكتسب هذه السلطة فعاليّتها من حجّ البشر الدّائم أو الموسميّ. وهكذا تتبيّن أهميّة العلاقة بين الإنسان والأرض حول الشّأن الدينيّ. إنّه مجال الجغرافيا الدّينيّة التّابعة للجغرافيا الثقافيّة، حيث تصبح إدارة الأماكن المقدّسة شأنا وطنيّا، تلعب فيه الدّولة سلبا أو إيجابا دور الجغرافيا السياسيّة.

ولّما كان المعتقد الدّينيّ عابر الحدود والقارات فمن الطّبيعيّ أن تحاول دول – في إطار مهمّتها الحكوميّة في حماية المواطن وتأطير مصاريفه. – المشاركة في إدارة الأماكن المقدّسة طوعا أو كرها. الأمر الذّي يُلقي دول القيادة الروحيّة بفضل أماكنها المقدّسة في قلب الجيوبولتيك العالميّ، حيث السيادة للقوى العالميّة عسكريّا واقتصاديّا. وقتها، يمكن أن تتحوّل نعمة هذه الأماكن نقمة. وهذا يفسّر الصّراعات الدّائرة اليوم حول الأماكن المقدّسة وفي مقدّمتها القدس بفلسطين.

إنّ اتّفاق الغرب الشامل الأورو– أمريكيّ على دعم إسرائيل، من أجل بسط السيادة على مقدّسات القدس، يندرج ضمن الجيوبولتيك الرّوحيّ. فهو من جهة ناتج عن كساد سوق السياسة وقحط الإبداع في إدارة الشّأن العامّ. ومن جهة أخرى، محاولة لتعويض النقص السياسيّ بالفائض الدّينيّ، وإن يؤَدِّ ذلك إلى إفراغ الدّين من محتواه ليبقى الشّكل. وهذا ما يجعل التفاعل الرّوحيّ بين الأديان السّماويّة تحت مسمّى "الاتّفاق الإبراهيميّ" يهدف إلى تركيع المسلمين وتهديدهم وإقناعهم بضرورة التّخلّي عن حقّهم في القدس. وفي هذا الإطار، توجد دول إسلاميّة مطبّعة وأخرى مقاومة. وكلاهما مرشّحة للسقوط نظرا لحدّة التناحر بينهما. ويبقى أمام الأديان السماويّة تحديات الوجود عند تدنيس الأماكن المقدّسة وتوفير مؤمنين بدون أخلاق ولا عبادة.

*** المراجع**

**أوّلا– المراجع العربيّة**


ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدّمة، تحقيق دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

دوغين (الكسندر): أسس الجيوبولتيكا (مستقبل روسيا الجيولتيكي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤.

رياض (محمد): الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا: مع دراسة تطبيقية على الشرق الأوسط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، المملكة المتّحدّة، ط١، ٢٠١٤.

سوفير (دافيد): جغرافية الأديان، ترجمة أحمد غسّان سبالو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.

عبد السلام (محمّد): "الجيوبوليتيكا "علم هندسة السياسة الخارجية للدول، دار الكتب، القاهرة، ٢٠١٩.

متاريك (أحمد): "ما هي قبور أئمة البقيع التي يطالب الصدر بإعادة بنائها؟"، زيارة الموقع: ٢٠٢٥/٠١/٠١، الرابط:

https://www.irfaasawtak.com/history/2024/04/16/

الفياض (مقدام عبد الحسن باقر): "غارات القبائل النجدية على كربلاء في مطلع القرن التاسع عشر"، ضمن مجلّة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة، العدد ٩، ٢٠٠٨.

**ثانياً- المراجع الأجنبية**

BERNADOU (Paul): Lieux saints. Publictionnaire. Dictionnaire encyclopédique et critique des publics. Mis en ligne le 23 juin 2020. Accès: http://publictionnaire.huma-num.fr/notice/lieuxsaints/.

BONIFACE (Pascal): La géopolitique، Éditions Eyrolles, 7ème édition, 2020.

CHABBI (Jacqueline): « Aux origines de La Mecque, le regard de l'historien », in Clio: voyages culturels, Novembre 2002.
(https://www.clio.fr/bibliotheque/pdf/pdf_aux_origines_de_la_mecque_le_regard_de_l_historien.pdf.

COLLIN (Bernardin): les lieux saints «Que sais-je?» le point des connaissances actuelles N°998. Presses Universitaires de France, 2ème édition mise en jour, 1969.

DUMONT (Gérard-François): « Nadjaf, grand site de pèlerinage chiite pour les vivants et… pour les morts », in Revue de Géographie Historique, 2020.

FRY (Louis W.) and COHEN (Melanie P.): Spiritual Leadership as a Paradigm for Organizational Transformation and Recovery from Extended Work Hours Cultures. Journal of Business Ethics (2009) 84:265–278.

MANLIO (Graziano): Géopolitique: introduction méthodologique، Note de travail، Décembre 2022.

NAZET (Michel): Géopolitique et relations internationales: une introduction, Ellipses, Paris, 2013.

PATRY (André): « Le Saint-Siège », in Les Cahiers de droit, (1965), 6(2), 21–28. https://doi.org/10.7202/1004147ar.

RACINE (Jean-Bernard) et WALTHER (Olivier): « Géographie et religions: une approche territoriale du religieux et du sacré L'information géographique », N°3, 2003.

SANGUIN (Andre-louis): " L'évolution et le renouveau de la géographie politique" In: Annales de géographie. 1975, tome 84, n°463.